مجلة الجامعة الإسلامية المجلد العاشر ، العدد الأول ص213 – ص248، 2002

تأثير جان جاك روسو على فــرح أنطون
(دراســة مقارنــة)

عبد العال حسن القــدرة *

كلية الآداب جامعة الأقصى – غزة

ص.ب:4051 غزة – فلسطين

Influeuce Of J.J. Rosseau on Farah Anton

ملخــص يتناول هذا البحث تأثير الكاتب والفيلسوف الفرنسي جان جــاك روســو على الكاتب العربي فرح أنطون في مجالات عديدة ، وقد ناقش هذا البحث تأثير كتاب روسو " أميل أو التربية" على عدد من إنتاجات أنطون من مقالات وقصــص ، كمــا ناقش تأثير كتاب جان جاك روسو " أصول عدم المساواة" على خطبة فــرح أنطــون الشهيرة " خطبة لدى شلال نياجرا" . وفي النهاية لم يغفل البحث الإشارة إلــى تــأثير مقال روسو " مقال عن العلوم والفنون (الذي نال به الفيلســوف الفرنســي جــائزة أكاديمية ديجون الفرنسية في ذلك الوقت) على بعض كتابات أنطون لا سيما روايته) أورشليم الجديدة " ، حيث يبدو التأثير واضحاً جلياً بشكل لا يقبل الجدل .

Abstract **This study is about the influence of Jean - Jacque Rosseau, the French writer and phlilosopher on Farah Anton, the Arabic writer in different respects.**

The study discusses the effect of Rosseau's book - "Emile or Education " on a number of Anton's articles and novels. It also explains how Rosseau's principles of Unequally " affected Anton's famous oration " oration at Niigata Falls.

The study also elaborates on the influence of Rosseau's essay " Essay on Sciences and Arts" (for which Rosseau won the Award of Degon Academy) on some of Anton's work, espically his novel "the New Jerusalem".

---

* أستاذ الأدب المقارن المساعد .

فرح أنطون

ولد فرح أنطون بمدينة طرابلس الشام سنة 1874 ، وعند بلوغه الثانية عشرة من العمر ، أرسله أبوه إلى مدرسة دير بكفتين في الكوره ، حيث أنهى المرحلتين الإبتدائية والثانوية . كان أبوه تاجراً فأشار عليه أن يتخذ من التجارة حرفة ، فمارسها فترة كان خلالها ينكب على المطالعة ، وكانت معرفته باللغة الفرنسية تساعده على ذلك ، إلا أنه لم يرتح للتجارة ، فاعتذر لأبيه عن الاستمرار في ميدانها .

تسلم – بعد ذلك – إدارة مدرسة للروم الأرثوذوكس بطرابلس ، ثم انصرف إلى الأعمال الكتابية والصحافية ، التي اشتهر من خلالها ، إذ أنه كان يراسل بعض الصحف والمجلات التي كانت تصدر في مصر كصحيفة " البلاغ المصري " الصادرة بالفرنسية وجريدة الأهرام ، وغيرها .

هاجر إلى الاسكندرية عام 1897لأن صناعة القلم بسوريا كانت مقيدة ، كانت ثقافته قد اتسعت في ذلك الوقت فأنشأ مجلة " الجامعة " التي كانت منبراً نشر بواسطتها آراءه السياسية والاجتماعية والآراء التي اقتبسها عن أعلام الفكر الغربي .

كان فرح أنطون يدعو الأمم الشرقية إلى الالتفاف حول عرش السلطان العثماني، لكي يتسنى لتلك الأمم التصدي للغرب الاستعماري ، ومع أن هذا المفكر العربي كان متشبعاً بآراء الغرب ومبادئه الاجتماعية فإنه لم يتوان عن اتخاذ الغرب الفكري أساساً ومنطلقاً لمواقفه المعادية للغرب السياسي الاستعماري البغيض (2) .

كانت مجلة " الجامعة " ذات نزعة اجتماعية فلسفية ، ولما كان صاحبنا يميل إلى مطالعة كتب المفكرين الإجتماعيين في فرنسا وغيرها ، فقد تحمس للاصلاح الاجتماعي والفكري ، وقد دفعه ذلك الحماس إلى نقل وترجمة واقتباس الكثير من الآراء الفلسفية الغربية الحرة غير مبال بردود الفعل التي يمكن أن تحدثها في المشرق العربي .

إشارات تؤكد وجود اتصال بين فرح أنطون وجان جاك روسو

قبل الخوض في هذا البحث ، لابد لنا من عرض بعض الإشارات التي من شأنها أن تؤكد اتصال فرح أنطون بفكر جان جاك روسو .

يقول الدكتور أدونيس العكره في كتابه عن فرح أنطون : "وفي هذه الفترة كانت ثقافته قـد اتسعت بعد أن اطلع على مؤلفات جان جاك روسو ولابرييـر وجـول سـيمون وكـارل ماركس ، فتشرب آراءهم الديمقراطية والاشتراكية واستساغ مناخ الحرية ، فمـا لبـث أن أنشأ مجلة " الجامعة " وهي أكبر عمل قام به في حقل الصحافة ، فكانت منبراً مهما نشـر بواسطتها أنطون آراءه الاجتماعية والسياسية والأفكار الجديدة التي اكتسبها واقتبسها عـن مفكري الغرب " (3) .

وفي السنوات الثلاث الأولى من عمر مجلة " الجامعة " أطلع فرح أنطون القراء على آراء جان جاك روسو في المجتمع ... (4) .

لقد " كان فرح أنطون شديد الشغف بالآداب الفرنسـية ، فأكـب علـى مطالعـة مصنفات أعلامها ، منهوماً لا يشبع ، وجليداً لا يهي له صبر .. ويخبرنا عن نفسـه أنـه صرف عمره في درس الفرنسية ، وقرأ فيها ما لا يقرأه غيره في مائة سنة " (5) .

وكان وافر الذكاء ، متقد الخاطر ، واسع الاطلاع على مذاهب روسـو ورينـان وفولتير وكونت وداروين ونيتشه وماركس وتولستوي وابن رشد وابن طفيـل والغزالـي وعمر الخيام وسواهم ، فنقل من مصنفاتهم ولخص آراءهم وحللها، وأحبها كلهـا وأشـاد بذكرها ..(6).

ويقول عنه أنيس المقدسي في كتابه " الفنون الأدبية وأعلامها " :" وكـان اقبالـه عظيماً على الأدب الفرنسي فانصب عليه ينهل من مناهله، ولا شك أنـه تـأثر بـالروح الإنشائية التي لمسها في أمثال جان جاك روسو، ورينان وفيكتور هيجو وأنـاتول فـرانس وسواهم " (7)

ولقد تأثر فرح أنطون بشكل خاص بالفيلسوف والمفكر الفرنسي الحر جان جـاك روسو ، وسوف نستعرض فيما يلي صوراً لهذا التأثر .

أولاً : تأثير " اميل أو التربية "
لجان جاك روسو على فرح أنطون

"أميل أو التربية " هو كتاب جان جاك روسو الذي وضعه في التربية ، وهو يقول في مقدمته أنه كتبه لسيدة فاضلة ، وهذه السيدة هي سيدة نبيلة ارستقراطية ، قدم روسو كتابه لها ، لكي يعينها على تربية ابنها – كما يقول .

والحقيقة أن الكتاب يغلب عليه طابع الوعظ والارشاد ، فيتتبع حياة الطفل من سنواته الأولى إلى ما بعد الزواج ، مما يثير عليه حفيظة القارئ ، إذ كيف يعقل أن يحتاج "أميل" إلى مراقبة المربي الذي يقوم على تربيته حتى فترة ما بعد الزواج ؟! (هذا إذا قبلنا – جدلاً – بكل ما جاء في كتاب روسو من اجتهادات وآراء) .

وضمن عمله كمرب لذلك الطفل ، يقترح عليه روسو في بداية حياته أن يتعرف على البيئة المحيطة به وأن يعرف الجهات الأربع معرفة عملية ، ثم على البيئات المختلفة فيما بعد ، ولا يرى واضع الكتاب مانعاً من تلقينه مبادئ الدين المسيحي ، (رغم أن مؤلف " أميل " لا يؤمن بالديانات وإنما يؤمن بالله فقط) لأن تعليم الطفل مبادئ الدين – في نظر صاحب كتاب التربية – أمر هام يساعده على النمو ، ويمنحه ذلك الشعور بالأمان والثقة والاطمئنان .

وحين يبلغ الطفل السادسة عشرة من عمره ، يقوم روسو بمكاشفته بالحقيقة (حسب زعمه):

وهي أنه – حسب رأيه – لا توجد ديانات آتية من السماء ، وأن عليه – بالتالي – أن يحتفظ بما سمعه عن الدين كنوع من ذكريات الطفولة البريئة الصافية ، تلك الطفولة التي يختلط فيها الواقع بالوهم والخيال ، وأن أفضل شئ لاميل هو أن يتبع الديانة الطبيعية . وعلى " أميل " – بعد ذلك – أن يختار طريقة في الحياة حسب ميوله الحقيقية ، فإذا أحس أنه يريد أن يكون فلاحاً يحب الطبيعة ، فعليه أن يكون كذلك ، وأن اراد أن يكون أي شئ آخر فليكنه، ولكن بمحض ارادته ، ولا يجب أن يكون لأي انسان آخر أي تأثير عليه في اختياره .

بعد ذلك ، يختار " اميل " ما يراه مناسباً له في ميدان العمل ، وبعـد أن يسـتتب أمره في العمل ، نجد أن روسو يرافقه إلى الحفلات والمناسبات الاجتماعيـة ، لاختيـار شريكة حياته ، وبعد أن يتأكد من صلاحيتها لاميل ، يشير عليه بالزواج منها ، حتـى إذا ما تزوج غلامه منها ، تابعه بعد الزواج ليرى إذا كان كل شئ على ما يرام (8) .

هذا ويتطرق " اميل أو التربية " إلـى موضـوعات عديـدة ومتنوعـة يصـعب اختصارها ، فالكتاب يقع في ألف صفحة . ولكننا سنقوم بإيراد كل ما هو ضروري لهـذا البحث في مكانه المناسب.

لقد كان روسو يؤمن بالله القادر العاقل ويرى قدرته في المخلوقـات ويعتقـد أن جميع الديانات – على اختلافها – ليست إلا شرحاً لحقيقة واحدة ، ويقرر أن التعصب لأي واحدة من الديانات ، جريمة لا تغتفر ، إذ ليس في الكون – حسب رأيه – انسان يسـتطيع أن يثبت أن الحقيقة في معتقده وفي متناول يده وحده ، لذا يتوجب علـى كـل إنسـان أن يتقبل رأي غيره حتى وان كان مخالفاً لرأيه (9) .

وهذا هو فرح أنطون يقتبس الفكرة ذاتها في واحدة من مقالاته التي نشـرها فـي الجامعة تحت عنوان "ابن رشد وفلسفته" ، حيث يقول : "ولسنا نزعم أنه يجوز لكل واحد من العلماء أن يضع مذهباً جديداً ويدعو الناس إليه وان كان مناقضـاً لمعتقـدات النـاس وهادماً لأساسها . كلا فإن ذلك أمر لا يخلو من مضرة من بعض الوجوه وان كان نافعـاً من وجوه أخرى ، ولكن كما أنه لا يجوز للعالم الجالس في غرفتـه وراء مائدتـه وهـو يبحث باخلاص وامعان عن الحقيقة أو ما يظنه حقيقة ، أن يدعو النـاس إلـى تـرك مـا بأيديهم للتمسك بالأمر الجديد الذي يظن أنه قد وجده ويحقر كل مـن لا يعتقـد معتقـده ، كذلك لا يجوز للناس أن يمنعوا العقل البشري من الانطلاق في جو الفكر لطلـب الحقيقـة والعلم والنور بالآلات العقلية التي منحه الله اياها دون تضييق على هذه الآلات أو إيقافهـا في مجراها ، ولا ريب أن الأمر الأول ضرب من الغرور والطياشة ، إذ ليس في العـالم أحد قادراً على اثبات أن الحقيقة في يده ومعتقده ، ولذلك – يقول فرح أنطون–يجب علـى كل واحد من البشر أن يحتمل رأي غيره وإن كان مخالفاً لرأيه " (10)

لقد كان فرح أنطون يدين بالولاء الكامل للمدنية الغربية ويتـأثر بنظرياتهـا وأفكارهـا ، وينشر في مجلته " الجامعة " مذاهب تلك المدنية في الاصلاح الاجتماعي .

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي كان فيه المويلحي وحافظ ابراهيم يشـعران بالولاء والتقدير للشيخ محمد عبده ولجمال الدين الأفغاني ، كان الأديب أنطـون يصـطدم بآرائهما كما حدث وقت نشر مقالاً عن ابن رشد في مجلته " الجامعـة " بـدا فيـه تـأثره الشديد بأقوال المستشرقين ، حيث قرر : أن المسيحية كانت أوسع صـدراً مـن الاسـلام وأكثر تسامحاً مع العلم والفلسفة من الدين الاسلامي ، مما دفع بالشيخ محمد عبده إلى الرد عليه بمقالات عديدة ، يثبت فيها سعة صدر الإسلام للعلماء والفلاسفة والأديـان الأخـرى بشكل ليس له نظير في أي دين من الأديان .

ومن مظاهر تأثيرات كتاب " اميل أو التربية " لجان جاك روسو على أنطـون ، ذلك الذي يتعلق أيضاً بالمعتقد والديانة ، وسنقوم هنا بمقارنة ما جاء عند روسو وتأثر بـه الأديب العربي من ضرورة الاخاء بين بني الانسان وما يمكن أن ينعطف على ذلك .

جاء عند روسو في " الاميل " ما يلي

" ليس للإنسان أن يثلم شرف أخيه الانسان وليس له أن يتعصب لدينه أو معتقـده ، فـإن التركي الذي يسكن استامبول ، لو قدر له أن يولد في أسرة باريسـية متعصـبة ، لكـان كاثوليكياً متعصباً ، وفي المقابل فان الباريسي لو ولد في اسـتامبول فـي أسـرة مسـلمة محافظة ، لكان مسلماً متعصباً ، ومن هنا فإنه لا ينبغي لنا أن نتعصب ، ويجب علينـا أن ننادي بضرورة الاخاء بين البشر ، انني احترم كل ديانة وكل مذهب يجد فيه متبعه السلام والمحبة والحق والفضيلة ، أما بالنسبة لي شخصياً فإنني أفضل أن أترك الأديـان جانبـاً وأن اتبع الديانة الطبيعية " (11) .

وجاء – في المقابل – عند فرح أنطون في روايته " اورشليم الجديدة " مـــا يعبـــر عـــن وجوب نبذ التعصب وضرورة الاخاء بين البشر على لسان بطل الروايـــة الـــذي خاطـــب حبيبته قائلاً : "إنني أحترم مذهبك وكل مذهب يجد فيه صـــاحبه راحـــة وســـلاماً وحقـــاً وفضيلة ، لنضع كل أديان البشر جانباً في مكان مقدس محترم ، ولنجتمع على دين جديـــد يقبل كل الأديان الفاضلة ، هو دين العدالة والحق والمحبة والصفح للجميع " (12) .

إننا نلمس عند انطون احتراماً جماً لكل ديانة ولكل مذهب يجد فيه صاحبه راحـــة وسلاماً وحقاً وفضيلة ، ويفضل أيضاً وضع كل أديان البشر جانباً ، وهو – إلـــى هنـــا – يسير على خطى روسو خطوة خطوة ، ولكنه يختلف معه قليلاً ، فبدلاً من أن يتبع الديانـــة الطبيعية التي تحمس لها روسو ، نراه يقترح الاجتماع على دين جديد ، هو ديـــن العدالـــة والحق والمحبة والصفح للجميع .

وبهذا يبدو التأثر واضحاً وإن اختلفت بعض التفاصـــيل غيـــر الجوهريـــة بـــين الكاتبين، بحيث تكاد الأفكار أن تكون متطابقة ، وما تقدم هو خير دليل على تـــأثير جـــان جاك روسو على فرح أنطون كما رأينا .

وجاء عند روسو في " الاميل أو التربية " قوله

" يكون الرجال كما تريد النساء ، فإذا أردتم أن يكونوا عظماء وفضلاء ، فعلموا النساء ما هي العظمة وما هي الفضيلة " (13) .

يضع فرح أنطون هذه الفكرة عنواناً لاحدى مقالاته في مجلته " الجامعة " (14) ويـــأتي هذا العنوان تحت عنوان آخر هو " تربية المرأة " ، ويعترف الرجل أن هذا القـــول لجـــان جاك روسو ، ولكنه يفسره و..يثبته بالأدلة والبراهين للقارئات والقراء .

يقول فرح أنطون في مقالته المذكورة في باب " تربية المرأة " تحـــت عنـــوان : " يكـــون الرجال كما تريد النساء " : " والذي يزيدنا رغبة في الكلام عن هذا الموضـــوع ، طلـــب كثيرٍ من القارئات والقراء . فإن بعضهم يرسل إلينا يقول : النساء النساء ، تكلمـــوا عـــن النساء .

وغيره يقول : ما معنى قولكم : يكون الرجال كما تريد النساء ؟ ونسي هذا السائل أن هـذا القول لجان جاك روسو لا لنا . وتقول بعض القارئات : نحب أن نقـرأ تفسـيركم لهـذه العبارة : " يكون الرجال كما تريد النساء " .

ويرد فرح أنطون على كل ذلك قائلاً " وقول روسو : كما يريد النساء يكون الرجال ، فإذا أردتم أن يكونوا عظماء وفضلاء فعلموا النساء ما هي العظمة والفضيلة . زيادة في تفسير هذا العبارة وإيضاح المعنى المقصود منها إجابة للسائلين والسائلات نقول : تنقسـم هـذه العبارة إلى قسميـن :

الأول : " يكون الرجال كما تريد النساء " وهي القضية .

الثاني : " إذا أردتم أن يكونوا عظماء وفضلاء فعلموا النساء ما هي العظمـة والفضـيلة " وهي النتيجة .

أما القسم الأول فمقتضاه أن المرأة متسلطة على الرجل فتجعله كما تريد : وهو قول فاسـد وصحيح معاً . يكون فاسداً لدى كل الأمم إذا اعتبرناه من حيث الظاهر ، ويكون صـحيحاً لدى كل الأمم أيضاً إذا اعتبرناه من حيث الحقيقة الطبيعية .

أما فساده فظاهر من أن الرجل هو المتسلط شرعاً على المرأة في كـل البلـدان وجميـع الأديان لا المرأة على الرجل ، وأما صحته فظاهرة من أن المرأة هـي المتسـلطة أدبيـاً واجتماعياً على الرجل لا الرجل على المرأة . ويكفي لإثبات ذلـك أن ننظـر إلـى أدوار عُمر المرأة وتأثيرها في كل منها .

المرأة تكون ابنة ثم خطيبة فزوجة فأماً فجَدة ...

خمسة أدوار جميلة تتقلب فيها بين طهارة الصبوة وجمال الشباب ووقار الشيخوخة . وهي في كل منها متسلطة على قلب الإنسان وحاكمة عليه.ويستمر فرح أنطون شارحاً: " فإنهـا أول ما تولد يأخذ أبوها بالتفكير والتدبير استعداداً لزيادة رزقه على نسبة زيادة نفقته .

لأن " المد موازل " إذا كانت اليوم صغيرة فإنها ستصبح غداً كبيرة . غـداً تحتـاج إلـى الحلل الجميلة وتطلب القبعات النفيسة، وبعد ذلك يأتي " النصيب " فيطلـب المـال فـوق الجمال والكمال ، وكل ذلك يزيد النفقة ، ومعلوم أن توقع زيادة النفقة يزيد اجتهاد الإنسان

ونشاطه في الكسب والتحصيل ، فالإبنة إذاً تجلب لوالديها يــوم ولادتهــا نشــاطاً جديــداً واجتهاداً جديداً يوجبان عليهما أن يفرحا بولادتها لا أن يحزنا كما يحدث أحيانــاً عنــدنا ، فهي إذاً من صغرها تبدأ في التأثير والتسلط على ما حولها ، فما أعظم هذه القــوة التــي تتسلط حتى في بدء طفولتها ! .

" ثم ينقضي دور الصبوة بطيشه ونزقه ، ويأتي دور الشباب بجمالــه وكمالــه ، ومن هنا يبدأ التأثير العظيم الذي يفوق كل تأثير في الوجود ، والسلطة الكبرى التي تفــوق كل سلطة في العالم .

كانت تلك الفتاة بالأمس ولداً في المدرسة تلعب وتثب غير مكترثة بشيء من هذه الحياة ، همها مقصور على رضى أمها ومعلمتها ودرس مثالتها واشباع معدتها ومداعبــة لعبتها ، ولكنها اليوم أخذت تهدأ شيئاً فشيئاً ، هو ذا الورد أخذ يتفتح في الخدود ، والعيون أخذت تذبل وتتجلل بثوب من البهاء جديد ، والنظر صــار مطرقــاً ، والفكــر مبهوتــاً ، والرأس منحنياً كوردة أثقلها الندى ، والوجنات شديدة التأثر ، كلمــة تفضفضــها وكلمــة تعسجدها . فما هذا الانقلاب العجيب الذي حدث ؟ لا شيء سوى أن "ملكة" الوجــود قــد بلغت سن الملك والسلطة ، لقد قبلتها الطبيعة الجميلة في فمها القرمزي الجميــل وألبســها الحسن تاج الملك ودفع اليها الشباب صولجان السيادة .

ثم مرَ الرجل فأبصر هذا السلطان فخضع صاغراً ، خضع مقصوراً على رضى حاكمته ، ما يرضيها وأي شيء يسرها ؟

هل ترضيها الحلي والحلل والخيل والخول ، والمراقص والمتنزهات ؟ هيا إذاً وأنفق المال بلا حساب . أيرضيها المزاح الكثير فاجعل نفسك مزاحاً أو المقامرة الكبيرة فاجعل نفســك مقامراً كبيراً ، أو الأدب والحشمة والاعتدال فاجعل نفسك أديباً ومحتشماً ومعتــدلاً ، كــل ذلك اكراماً لعيونها لأنه لا يهمك وقتئذ شيء في هذه الحياة إلا رضاها ".

كل ذلك شرح جميل لما جاء في مقولة روسو بكتاب " اميل أو التربية " (15) .

ولكن هذا الشرح ذاته مقتبس أيضاً من مقالة روسو ذاتها ، إذ أن المُطالع لمقولــة روسو المتقدمة وشروحاته عليها ، يجدها منقولة نقــلاً دون اهمــال شــيء منهــا علــى الاطلاق. وإذا نظرنا إلى ما نقله أنطون إلينا في حديثه عن الأدوار الخمسة الجميلة للمرأة

وهي تتقلب فيها بين طهارة الصبوة وجمال الشباب ووقار الشيخوخة وهي في كل منها متسلطة على قلب الإنسان وما تلاه من تفصيلات ثم إذا قرأنا ما نقله كذلك من كلام عن مواكبة رغبات المرأة سواء أكانت الخيل والخيول أو المراقص والمتنزهات أو المزاح الكثير أو المقامرة الكبيرة أو الأدب والحشمة وما انعطف على ذلك من شروحات منقولة ، لو تأملنا كل ذلك لتخيلنا أننا نقرأ كتاب "اميل أو التربية " لروسو " باللغة العربية" !! ولا عجب في ذلك ، فإن اعجاب فرح أنطون بجان جاك روسو وآرائه قد تعدى شرح المقولات إلى اقتباس الشروحات التي أوردها روسو ذاته على مقولاته المشهورة في كتابه "اميل أو التربية " .

ولا يفوتنا – من جهة ثانية – أن نُسجل أن استشهاد " أنطون " بمقولات " روسو "في مقالاته الصحفية وغير الصحفية – كما سنرى فيما بعد – يعتبر في حد ذاته تأثراً بآراء هذا الأخير تأثراً واضحاً وصريحاً .

بعد ذلك ، يورد فرح أنطون لقرائه نصوصاً كاملة – من تلك الصفحات المشار إليها فيما تقدم من هذا البحث – موجودة أصلاً في كتاب " اميل أو التربية " كشرح منه لقول آخر من أقوال جان جاك روسو .

يعيد كلام الكاتب الفرنسي الوارد في كتابه التربوي ، فيقول

" فالآن والرجل محتاج إلى رضى المرأة كما ذكرنا احتياجاً جنسياً واحتياجاً أدبياً اجتماعياً كيف تكون حاله معها إذا كانت جاهلة لا يهنأ لها عيش إلا بالطيش والمزاح والإسراف واللعب والنميمة والمراقص والجمعيات واهمال المنزل والقاء حمل الأولاد على الخدم والمراضع ؟؟

ألا يضطر طلباً لرضاها إلى مجاراتها في كل ذلك فيكون طائشاً مزاحاً مسرفاً لاعباً وهلم جرا إلى آخر ما في دركات " الهيئة الاجتماعية " . إذا كانت امرأة تضحك من الأدب والمتأدبين في قاعة ، الا يسبقها إلى ذلك كل الشباب والرجال الحاضرين ارضاء لها ، إذا كانت تضحك من فلانة لأنها لا تلعب ومن فلان لأنه لا يغني ويصرخ ويمزح اضحاكاً للحاضرين ، ألا يصبح جميع الرجال الجالسين في ذلك المجلس صراخين

مزاحين أضاحيك ؟ نعم لأنه يجب أن يرضوا النساء ، ينبغي ألا تضجر النساء ، يلــزم أن تسرَ النساء ، وهذا معنى قول روسو " يكون الرجال كما يريد النســـاء ، فــإذا أردتــم أن يكونوا عظماء وفضلاء ، فعلموا النساء ما هي العظمة والفضيلة " (16) .

وأخيراً يُتم " فرح أنطون " نقل اَراء " روسو " من كتاب روسو التربــوي ذاتــه فيقول : " وهذا العالم الجديد الذي نطلب هو عالم يكون ميلكن فيه مصروفاً إلــى الأمــور النافعة المفيدة ، عالم يتقرب فيه الرجال اليكن بالأعمال الحميدة وطيب الأحدوثــة والأدب والفضيلة والعلم والمعرفة ، فتكون هذه الفضائل هي الرائجــة لــديكن المقربــة مــنكن لا نقيضها من ضروب الخلاعة والجهالة . ومتى صارت هذه أميــالكن ، تلطفــت خشــونة الرجال وتغيرت أميالهم حرصاً على رضاكن لأنه " يكون الرجال كما يريد النساء " (17) وهو يشدد في مقاله على دعوته المرأة إلى الأدب والفضيلة حاثاً إياها أن تكون أكثر كمالاً من الرجل ذاته ، حيث يقول : " لذلك نطلب منك أن تكوني أكثر منه كمــالاً لتكــوني لــه قدوة وجمالاً ومثالاً .

ولذلك نقول مع " روسو " ولو غضب الرجال : كما يريد النساء يكون الرجال " (18)

وفي كتابه المتقدم " اميل أو التربية " ، يورد روسو مقولته المشهورة " إذا أردتــم اصلاح " الهيئة الاجتماعية " ، فاصلحوا النساء " (19) . ثم يحدد الكاتب الفرنسي وظيفــة المرأة قائلاً : إن وظيفتها أن تكون زوجة وأماً ، وان الإرادة الالهية قد أوجــدتها لــذلك لا لأمر سواه ، وحصر جان جاك روسو واجبات الزوجة في أمرين : **الأول** : تدبير المنزل **والثاني** : ارضاء الزوج . وشرح روسو الأمر الأول قائلاً : إنه لا ينبغي للزوجة أن تدع خادمتها في المنزل تعرف من تدبيره أكثر منها ، كما لا ينبغي لها أن تترفع عن الأعمــال البيتية التي من شأنها أن تُدخل السرور إلى نفس زوجها . كما أنه مــن الخطــأ الفــادح ، ترك جميع الأعمال للخدم والمراضع ، كما شرح الأمر الثاني بقوله : إن هذا الأمر – هو أيضاً – شديد الخطورة ، لأنه الركيزة الأساسية لسعادة الأسرة (20) .

وفي مقال اَخر لفرح أنطون ، تحت عنوان " تربية البنات " (21) ، يكرر الكاتب **العربي** ما جاء في المقال السابق لجان جاك روسو ، فهو يفتتح المقال بعبارة روسو ذاتها:

"إذا أردتم اصلاح الهيئة الاجتماعية فاصلحوا النساء " . وبعد ذلك يتساءل عن وظيفة المرأة ويجد الجواب في " أن وظيفتها أن تكون زوجة وأماً .
لهذا خلقت في هذه الحياة لا لأمر سواه . فتربيتها إذاً يجب أن تعلمها واجبات الزوجية والأمومة " (22) .

ثم يحدد وظيفة المرأة بطريقة مطابقة تماماً لتحديد روسو لها ، فيقول

" وواجبات الزوجية نحصرها في أمرين : **الأول** : تدبير منزلها ، فإنه من الواجب عليها أن لا تدع خادمتها في المنزل تعرف من هذا الفن أكثر منها ، ولا أن تعمل فيه أكثر منها ومن دلائل شرف المرأة ونشاطها ومعرفتها واجباتها ألا تأنف من الأعمال البيتية بل تُسر بعملها ،كما أنه من دلائل صغر العقل وانكار الواجبات التنازل عن تلك الأعمال كلها إلى الخدم لغير ضرورة لابد منها . ولا يخلو من فائدة أن تعلم المرأة أن عظمتها متوقفة على نظام منزلها وحسن حاله وحال الساكنين فيه . فإن هذا المنزل هو مملكتها الصغيرة ، فماذا يقول العقلاء في ملكة تهمل مملكتها أو تتكل على غيرها في إدارتها وتدبيرها ؟ . **الثاني** : ارضاء الزوج ، وهو أمر لا يقل عن الأول أهمية لأنه عليه مدار سعادة العائلة . (23) .

والذي يطالع النصين (نص روسو ونص أنطون) لا يخفى عليه ما بينهما من تطابق تام في الآراء الأساسية حول المرأة ووظيفتها وواجباتها وما انعطف على كل ذلك من تفاصيل وايضاحات . والعجيب في الأمر أن تأثر الكاتب العربي بجان جاك روسو وآرائه يصل إلى درجة التأثر الكبير الذي نتج عنه ذلك الاقتباس الواضح كما رأينا .

هذا بالإضافة إلى مجموعة من التأثيرات التربوية المتفرقة لكتاب جان جاك روسو " اميل أو التربية " ، وهي على النحو التالي :

ففي الفصل الثاني عشر من روايته " الوحش ، الوحش ، الوحش " ، يتحدث فرح أنطون عن بعض آراء روسو في التربية فيقول : " ولم ينتصف الليل حتى صار عدد المتوافدين على الأرز ألفي شخص فلما رآهم سليم وكليم يتمددون على الأرض للرقاد بدون غطاء ولا فراش قال سليم لكليم : نحن ظننا أننا صنعنا أمس صنع الأبطال بنومنا تحت الأشجار على خرج تحت غطاء خفيف فانظر إلى اصحابنا القرويين فإنهم ينامون

بلا خرج ولا غطاء كأن الأمر عندهم في غاية البساطة . فأجاب كليم : هذا مصداق لقــول روسو : يجب ألا يُربى الإنسان كشجرة تعيش في هذا الاقليم ولا تعيش في ذاك بل يجــب أن يجعل قادراً على المعيشة في كل الأقاليم فحيثما القيته جاء واقفاً على قدميه نشيطاً قوياً قادراً على احتمال كل تقلبات الحياة " . (العكره ص135) .

وهو ينقل في قصته " اورشليم الجديدة " قولاً لجان جاك روســو ، ويشــير فــي الهامش إلى أنه اقتبسه من كتاب " اميل " . والقول المقتبس هو :

" إذا كان موت سقراط موت رجل حكيم فموت يسوع كان موت إله "(العكره ص233)

والكاتب ينقل أيضاً في هامش قصته " أورشليم الجديدة " ذاتها قولاً آخر للكاتــب الفرنسي روسو . وهذه هي مقولة روسو كما هي مدونة على هامش قصة فرح أنطون :

" قال روسو في كتاب " اميل " : إذا تعرض لــك فــي ظــلام الليــل الــدامس شــخص على حين فجأة فأول ما يجب عليك دفاعاً عن نفسك أن تقبض عليه من جانــب يديــه وأن تضغط عليه بكل قوتك وتسأله من هو وماذا يريد ولا تتركه إلا بعد طمأنينــة نفســك " . (العكره ص237) والأمر لا يقف بانطون عند هذا الحد وإنما يتعداه إلى نواح عديدة كمــا سنرى .

ثانياً : تأثير خطاب روسو

أصـــــول عــدم المساواة بيــن النـــاس

في عام 1753 ظهر في برنامج " أكاديمية ديجون " الفرنسية مسابقة تحت عنوان :

" **ما هي أصول عدم المساواة بين الناس ؟**" .

ولقد حاول جان جاك روسو الإجابة عن هذا السؤال ، خلال إقامته فــي " ســان جرمان " ، حيث حاول أن يفكر لنا بصوت مرتفع ، وذلك على النحو التالي : " متــوغلاً في أعماق الغابة ، حاولت أن أبحث وأفكر ، لكي أجد صورة للماضي الســحيق ، حيــث تصفحت التاريخ بكل فخر واعتزاز ، وجعلت يدي تمر على أكاذيــب النــاس الصــغيرة وتجرأت على تعرية طبيعتهم متتبعاً تطور الأزمان والأشياء التي بشــعوها وأفســدوها ، وقارنت الناس العاديين بالإنسان الطبيعي (كان روسو يفتخر دائماً بالإنسان الطبيعي الــذي

لم تفسده الحضارة) وبينت لهم كماله كما أظهرت لهم – في الوقت ذاته – منابع وأسباب شقائهم "(24) .

هذه الأفكار ذاتها ، الهمته خطابه المعروف : " أصول عدم المساواة بين الناس " الذي ظهر عام 1755 ، وهذا الخطاب لم يصادف الكثير من النجاح في حينه ، وعكس الحال كان له فيما بعد ، حيث اشتهر كثيراً في زمن لاحق .

لقد كان مما أُثر عن روسو ميله إلى البساطة والقناعة والعيش في أحضان الطبيعة ، ومحاربته للترف والمدنية ، بكل ما أوتي من قوة ، فهو لا يرى السعادة إلا في الحياة الطبيعية ، بكل ما يمكن أن تحمله الكلمة من معنى ودلالات . ها هو ذا – في كتابه عن أصول عدم المساواة بين الناس – يصف حياة الإنسان في حياة طبيعية بسيطة وجميلة، تترقرق بالسعادة والحرية والهناء الطبيعي ، ولم تدنسها المدنية – حسب رأيه – فيقول : "هذه صورة الإنسان الطبيعي الحر ، إنه إنسان متوسط في قوته ، ويستطيع أن يحصل على حاجاته بطريقة طبيعية ، فإذا جاع فإنه يستطيع أن يجد في الطبيعة شيئاً يأكله، وإذا أصابه الظمأ ، فإنه يشرب من أول نبع يصادفه " (25) .

" ..... إنه يعيش حياة طبيعية صافية ، لم تدنسها المدنية ، حياة بسيطة وجميلة حياة مليئة بالوداعة والقناعة والسعادة والحرية " (26) .

لقد تحدث روسو كثيراً عن الحياة الطبيعية في كتابه " أصول عدم المساواة " وكان يسوق الدليل تلو الدليل على أن " عدم المساواة " شيء غير موجود في الحياة الطبيعية ، كما تحدث الكاتب الفرنسي عن الأساس في مشاكل الحضارة وقدم الأدلة والبراهين على أنه يتركز في " المجتمع المدني " وفي " الملكية الخاصة " . وقد لخص رأيه النهائي في هذه المسألة قائلاً : " إن أول رجل أحاط قطعة من الأرض بسياج وقال : إن هذا ملكي ، إن هذا لي ، إنما يعتبر هو ذاته ، المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني وللملكية" (27) .

ثم يقول في موضع آخر

" إن راحة الإنسان وسعادته لا تكون إلا بعيداً عن الحياة المدنية وما بها من مادية عاتية ، كانت سبباً رئيسياً في زعزعة المبادئ والشرائع والآداب والأديان ، وأجبرت الأمم على

السير على خط آخر ، فجعلت منهم حيتاناً هائلة تتعادى وتتسلح وتقتتل ، والشعوب – في داخلها – يأكل كبيرها صغيرها وقويها ضعيفها بطريقة أسوأ مما تفعله الحيتان بحيوانات البحر الصغيرة " (28) .

ويقول : "يستخدم الغني الفقير بأجر تافه ، لكي يزيد من ثروته ، وبالتالي يجنح إلى الترف الذي يساعد بدوره على انحدار الاخلاق ، لأن الثروة تبطر صاحبها ، فضلاً عن أنها تيسر له من اتيان الصغائر والفواحش ما كان عاجزاً عنه قبل الوصول إليها . وبقدر ما يزداد الأغنياء غنى ، يزداد الفقراء فقراً " (29) .

ولقد تأثر فرح أنطون تأثراً كبيراً بهذه الأفكار ، وقد تجلى ذلك التأثر بشكل واضح في خطبة أنطون لدى شلال نياجرا (30) كما سنرى .

يقول فرح أنطون في " خطبة لدى شلال نياجرا " :

" أتذكر أيها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعاً لأولئك الهنود المساكين قبل أن يصل إليك البيض ويغتصبوا أرضهم هذه ظلماً وعدواناً ؟ لا ريب في أنك تذكره لأنك كنت فيه معبودهم .

فأولئك البشر السذج المساكين الذين كانوا يصطادون التمساح من مياهك وهم عراة الأبدان تكسو الرياش رؤوسهم وتحمل أيديهم الفؤوس والحراب ، ويعيشون بالغزو والسطو في قفر يباب ، كانوا أسعد حالاً وأنعم بالاً من هؤلاء البيض الوافدين على شاطئيك من جميع أقطار الدنيا وقد ملأوهما بالمدن العامرة والمنازل الفاخرة والحدائق الزاهرة والمركبات الكهربائية والسفن البخارية وراحوا يتبخترون بينها تبختر الطاووس بثياب جميلة وشعور صقيلة . وصدقني أيها الشيخ أن أولئك كانوا أسلم طبعاً وأبعد عن الخبث من هؤلاء .

ويضيف بحسرة ظاهرة

" قد غيروا أرضك ومن عليها أيها الشيخ ، وهم يظنون أنهم حسَنوها وحسَنوك ، وجمَلوها وجمَلوك ، وما جمالهم إلا كجمال المرأة الذميمة : زخرف خارجي وطلاء سطحي . حك هذا الطلاء قليلاً فتجد تحته جيفة منتنة . أظنني غير مخطئ ولا مسيء

إليك أيها الشيخ إذا قلت لك أنك كنت أجمل منك اليوم حين كان شاطئاك ملجأ للمتوحشين ومعتركاً للأسود والنمور ومسبحاً للذئاب والتماسيح ومرقصاً للدببة والقردة . فقد كان جمالك يومئد وحشياً طبيعياً ، يقشعر له جلد التصور ويرتد عنه طرف الخيال مذعوراً .
لقد كان جمالك يومئذٍ جمالاً حقيقياً ، أما اليوم فقد أسروك كما تؤسر الأسود في الأقفاص وتجعل فرجة للناس ، فأصبح شاطئاك مرتعاً لذئاب ونمور ودببة وقردة من جنس جديد لها طباع تلك ولكنها تمشي على قائمتين لا على أربع . إن روحاً مادية هائلة هبت على العالمين فضعضعت المبادئ وزعزعت الشرائع وسحقت الأديان والآداب وساقت الناس بعصا الحاجة الحديدية إلى مبادئ هائلة جعلتهم ذئاباً هائلة . فإن الأمم الآن تتعادى وتتسلح تأهباً لاقتتال أفظع من اقتتال الذئاب . والشعوب يأكل – في داخلها – كبيرها صغيرها وقويها ضعيفها كما تفعل أسماكك . فروكفلر يملك من المال ألف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدون ، وهو يستخدمهم بأجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم وهم يسكتون ويعملون لأنهم مضطرون . والسلطة في الأرض ضعفت وكادت تنحل . فإن الناس أسقطوا العروش والملوك ولكنهم أقاموا مكانها ملوكاً لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس ، فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين الذين يتملقون الشعوب ويضلونهم كما كان اخصاء الملوك يتملقونهم ويضلونهم والأفراد يتخاصمون ويتعادون ويفترس بعضهم بعضاً بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم تنازعاً على الرزق والسيادة ، وقبح هذا الرزق وهذه السيادة إذا كان لا يبلغ اليهما إلا بالرجوع إلى وحشية همجية أشد من الوحشية والهمجية الأولى . فإذا كان كل هذا هكذا أيها الشلال فأين الارتقاء الذي يزعمونه ؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك ؟ وما هذا القبح الذي يدعونه جمالاً ؟ من أجل هذا صَرَخَ حكيم مشهور قائلاً : يا وحوش البر وأفاعي الغاب ، خذيني إليك اَكل من طعامك وأشرب من مائك ، فإن صحبتك أهون على الإنسان من صحبة الإنسان " .

إن هذه الخطبة لدى شلال نياجرا تذكرنا بما تقدم من خطاب جان جاك روسو عن " أصول عدم المساواة " بين الناس (31) كما رأينا ، حيث يتحدث روسو عن " الإنسان الطبيعي " وسعادته وما يتمتع به بعيداً عن " الحياة المدنية " و " الملكية " وما

تقودان إليه من مادية عاتية كانت سبباً رئيسياً في زعزعة المبـــادئ والشـــرائع والأديـــان والآداب الإنسانية ،وأجبرت الأمم على السير على خط مغاير ، فجعلت منهم حيتاناً هائلـــة وذئاباً مفترسة تتعادى وتعد للحرب ، تتسلح وتقتتل – وحتى الشعوب في داخلها – يأكـــل كبيرها صغيرها ويفترس غنيها فقيرها ، تماماً كما تفعل الذئاب في البـــر والحيتـــان فـــي البحر .

ويتضح بعد مقارنة النصين (الأول : لروسو والثاني : لأنطون) أنه كانت لكتابات روســـو في خطابه عن أصول عدم المساواة بين الناس تأثيراتها الواضحة على الكاتـــب العربـــي فرح أنطون في خطبته لدى شلال نياجرا .

وعلى الجملة ، فإن تأثير الكاتب الفرنسي على فرح أنطون كان تـــأثيراً واضـــحاً وجلياً ، ظهر في مواطن عديدة من كتابات الأخير كما رأينا . إضافة إلى مواطن أخرى ، كان الكاتب العربي عرضة فيها لتأثيرات لا تقل أهمية عن التأثيرات السابقة .

ثالثاً : تأثير خطاب روسو عن " العلوم والفنون " (32)

ولنأخذ مثالاً آخر من أمثلة غلبة المحاكاة على كاتبنا فرح أنطون ، والذي يتمثـــل فيما سوف نراه من نقل واقتباس لما ورد في " خطاب العلوم والفنون " الـــذي جـــاء بـــه روسو ، ونال عليه جائزة " أكاديمية ديجون " الفرنسية ، وكان السبب الأول والأهـــم فـــي شهرة هذا الأخير .

فقد وقعت عينا روسو ذات يوم على إعلان في احدى الصـــحف المحليـــة عـــن موضوع " مسابقة " عرضته " أكاديمية ديجون " ، وكان ذلك الموضوع بعنـــوان : " هـــل أدى تقدم العلوم والفنون إلى انحلال الأخلاق أم إلى رقيها وتطهيرها ؟ " ، لقد كـــان هـــذا الموضوع نقطة تحول جَبارة في حياة وتفكير الفيلسوف الفرنسي ، وخاصة حينما شـــاءت الأقدار أن يجاز مقاله في هذا الموضوع سنة 1750 على أساس أنه أفضل من كتب عـــن ذلك الموضوع . ومنذ ذلك الحين ، أخذ نجمه في الصعود ، وبدأت شهرته الحقيقية ، كما بدأت تعرفه صالونات باريس الأدبية المعروفة آنذاك .

يعتبر جان جاك روسو " أن أصول العلوم قد جاءت نتيجةً للنقائص والعيوب ونقاط الضعف الإنسانية : " فعلم الفلك " جاء نتيجة لتطير الإنسان وحبه للخرافات والأساطير . و " علم البلاغة " ناتج عن الطمع والتملق والكذب والكراهية لدى الإنسان . أما " علم الهندسة " فهو وليد البخل . و " الفيزياء " ولد بسبب حب الإستطلاع العبثي . وحتى " الأخلاق " ، فقد خُلقت لتلبي حاجة الإنسان إلى الكبرياء والغرور ... ويضيف الكاتب الفرنسي قائلاً : ان تقدم العلوم والفنون قد ساهم مساهمة فعالة في دفع الإنسانية إلى هوة عميقة من الفساد وانحلال الأخلاق . إن هذه العلوم والفنون ليس لها – عملياً – أية قيمة " (33) .

ويقول في موضع اَخر: مزقوا الكتب وانبذوا العلوم والفنون واهدموا القصور حيث تعشش الرذائل . دمروا المدن حيث تسود الشرور واخرجوا إلى الطبيعة بعيداً عن مفاسد الثروات والمدنيات ، وعيشوا فيها حياة طبيعية فطرية ، تترقرق بالحرية والسعادة والقناعة والهدوء .

إنني أدعو الناس إلى أن يعيشوا أحراراً كطيور السماء ، لا تهتم بشيء لأنها تجد في الطبيعة كل شيء (34) .

ويردد فرح أنطون (في قصته : أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس) مهاجماً تلك العلوم والفنون كما هاجمها روسو ، فيقول : " ربما أثبت المستقبل بعد مليون سنة مثلاً أو نصف مليون أن هذا القصر العلمي الذي رسمته معك الآن إنما هو قصر في الهواء (.....) إن المعيشة في الطبيعة بلا هَم ولا غَم هي المعيشة الإنسانية الحقيقية وأن البعد عن صل المال وأفاعي الجاه والعالم لهو الخير المطلق . وهذا ما يصبو إليه قلبي كما ذكرت لك اَنفاً وإن كان عقلي متعلقاً بذاك .

"أجل يا صديقي ان هذه الصورة الجليلة لهي الصورة السماوية التي تقبض على نفسي بمقابض من حديد بالرغم عنها. وكل ما حاولت أن أقول أن ذلك في من تأثير العادة والتربية ينادي منادي الطبيعة في داخلي هذا النداء الطويل : كلا كلا . هذه هي الطريق المستقيمة . هذا هو سبيل السعادة الممكنة . اخرجوا اخرجوا إلى الطبيعة يا أبناءها وعيشوا فيها بعيدين عن مفاسد الثروات والمدنيات . كونوا كطيور السماء وزنابق الحقل

لا تهتم بشيء لأنها تجد في الطبيعة كل شيء . اهدموا القصور حيث تعشش الرذائل المختلفة . اخربوا المدن حيث تسود الشرور ، مزقوا الكتب وانبذوا العلوم والفنون " (35)

الجانبان – روسو وأنطون – متفقان تماماً على ضرورة الخروج إلى الطبيعة للعيش بعيداً عن مفاسد الثروات والمدنيات على أساس أن ذلك هو السبيل الوحيد للسعادة ، حيث يعيش الإنسان كطيور السماء وزنابق الحقل ، لا يهتم بشيء لأنه سيجد في الطبيعة كل شيء . والجانبان متفقات – كذلك – على ضرورة هدم القصور (حيث تعشش الرذائل) وعلى تبني الدعوة إلى تخريب المدن حيث تسود الشرور ، والأهم من كل ذلك : على تبني الدعوة إلى تمزيق الكتب ونبذ العلوم والفنون ، لأن تقدم العلوم والفنون قد ساهم مساهمة فعالة في دفع الإنسانية إلى هوة عميقة من الفساد وانحلال الأخلاق كما ساهم مساهمة حقيقية في البعد عن الصراط المستقيم وسبيل السعادة الممكنة .

وواضح ذلك الفرق الكبير بين الكاتبين ، حيث تتجلى الأصالة عند روسو ، كمفكر أصيل ، يطرح أفكاراً ، تربطها روابط عديدة بظروف المجتمع الذي عاش فيه (وربما كان لها ما يبررها) في حين ، يبدو التقليد واضحاً عند فرح أنطون ، الذي يطرح قضايا بعيدة كل البعد عن الواقع العربي المعاش ، ودون أي مبرر منطقي على الإطلاق .

وقد هاجم روسو – في ذلك الخطاب – العلوم والفنون بشدة ، لأنها – حسب رأيه – السبب الأول المؤدي إلى الترف ، وفساد الأخلاق .

وإذا كان روسو قد هاجم العلوم والفنون نتيجة لسيطرة ظروف اجتماعية معينة على المجتمع الفرنسي ، أصابته بالترف وما نتج عنه من انحلال أسهم في صنعها تقدم العلوم والفنون اسهاماً كبيراً ، فإن ذلك لم يمنع الكاتب العربي فرح انطون من أن ينتهج نهج روسو ، دون أن يدرك الفارق بين الحال الأوروبي وملابساته في ذلك الزمان (من القرن الثامن عشر) وموقف الفيلسوف الفرنسي منه ، وحالنا نحن – في المقابل – وما يواكبه من تخلف علمي وغيره .

وبالإضافة إلى تأثيرات روسو الفكرية والفلسفية ، فإننا نجد له تأثيراً آخر ألا وهو ذلك التأثير الحماسي في طرح أفكاره حول موضوع العلوم والفنون (وما انعطف عليه من حديث حول مميزات الحياة الطبيعية) ، حيث كان الكاتب الفرنسي ذا نبرة

خطابية حماسية حادة ذات توتر عال ، كان مصدرها إيمان قوي وعميق بكل ما جاء في خطابه من أمور . وقد عكست كلمات فرح أنطون حول العلوم والفنون وحول المدنية (التي هي ثمرة من ثمرات العلم) تلك النبرة الخطابية وذلك التوتر والانفعال كما رأينا .

لقد اعتمد الفيلسوف الفرنسي في خطابه عن العلوم والفنون طريقة إنشائية فيما كتبه في هذا المجال ، حيث اهتم بجمال صناعة الكتابة مما يجعل لكتابته أثر في النفس مع جاذبية تشد الإنسان للاقبال عليها ، وتساعد – في الوقت ذاته – على تكوين جمهور مفكر يميز الجيد من الرديء والجميل من غير الجميل مما يُطرح أمامه من أساليب وكتابات .

والحق أن الأسلوب الذي استخدمه روسو في خطابه إنما هو اسلوب يعتمد على الإستفادة من عاطفة الجمال الموجودة في النفس الإنسانية ، وقد حاول فرح أنطون تذوق اسلوب الأول والسير على خطى روسو في هذا السبيل ، وقد ألمح أنطون في مقدمته لقصة " أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس " إلى أنه قد عنى بجمال التأليف ، لأنه يعتقد عن قناعة بأن الكتابة المؤثرة لا يمكن أن تستقيم بدون هذا الجمال .

لقد جمع روسو في خطابه عن العلوم والفنون بين التاريخ والأدب والفلسفة والاجتماع ، وقد لاحظنا هذا الجمع ذاته لدى فرح أنطون في روايته " أورشليم الجديدة " ، حيث اجتمع التاريخ فيها مع الفلسفة والاجتماع والحب والأدب ، وهو ما ذكره أنطون في مقدمة الرواية ذاتها .

لقد غلب على ادبائنا اعتبار الجمال في الشكل ، فاهتموا بهذا الجمال الظاهري ، أما القلة من هؤلاء الأدباء ، فهم الذين كلفوا أنفسهم الغوص العميق وراء الأشكال الظاهرة.

ولو فتشنا عن مفهوم " الصورة الأولى " و " الصورة الثانية " في العمل الأدبي ، لوجدنا أن كل عمل فني له سطح هو ما يعرف بالسطح الجمالي ، وهو المقصود بالصورة الأولى ووراء هذا السطح شئ يفهم أو يُحس ، وهو المقصود بالصورة الثانية .

وإذا كان النقاد قليلاً ما يتجاوزون الحديث عن الصورة الأولى (وهي ضرورية طبعاً) إلى الحديث عن الصورة الثانية في العمل الأدبي ، فإن ذلك يبدو – في الواقع –

طبيعياً ، لأن الناقد لا يستطيع أن يحكم دائماً على الصورة الثانية في العمل الأدبي إلا مـــن حيث ما فيها من الأهمية .

وهذا ما نريد أن نطبقه – عملياً – على كل من روسو وأنطون ، في آن معاً ، لنرى إلـــى أي حد وفق كل منهما في كل صورة من الصورتين :

لقد نجح جان جاك روسو في انتزاع الإعجاب بالســطح الجمـــالي أو بالصـــورة الأولى ، (ولا عجب في ذلك وهو الشاعر ذو الأشعار الساحرة التي تخللت جميع فصـــول روايته "جولي أوهلويز الجديدة " وقد أجمع النقاد الفرنسيون المعاصرون – كذلك – علـــى قوة سحرها وقوة الخيال عند صاحبها) كما نجح أيضاً في انتـــزاع الاعجـــاب بالصـــورة الثانية ، لأنه استطاع أن يقدم عملاً تجاوز فيه روعة وجمال وسحر الصورة الأولى إلـــى أشياء تفهم وتحس ولها من الأهمية (من وجهة نظر الناس في القرن الثامن عشـــر علـــى الأقل) ما جعلها تنتزع جائزة أكاديمية ديجون الفرنسية ، على أساس أن الخطـــاب الـــذي يحتوي تلك الأشياء هو أفضل خطاب كُتِبَ في فرنسا بأسرها حول ذلك الموضوع .

أما صاحبنا فرح أنطون ، فقد أراد أن يكون معلمـــاً للتـــاريخ ، يهـــتم بالحقـــائق التاريخية ولا يبالي كثيراً بالعناصر الروائية . وتتفق رواية أنطون هـــذه مـــع الروايـــات التعليمية من حيث الشكل والهدف ، فهي رواية تاريخية اجتماعية تتحدث عن قدوم العرب إلى بلاد الشام بعد ظهور الإسلام وحصارهم بيت المقدس (العاصـــمة الدينيـــة الكبـــرى للمسيحيين – آنذاك – كما يقول المؤلف) كما تتحدث عن سفر الخليفة عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه إليها لفتحها ، ويتخلل ذلك حديث عن أحوال المسلمين والمسيحيين واليهود في ذلك الوقت وعن الأفكار الدينية والسياسية التي كانت تخالط نفوسهم ، وعن الأســـباب الدينية والاجتماعية التي كانت وراء ضعف سلطة الروم في القسطنطينية ، فكانت سبباً في زوال ملكهم وسيادة غيرهم .

أما " الصورة الثانية " التي حاولنا الوصول إليها ، فهي موجودة لـــدى أنطـــون ، ولا يعيبها سوى أنها اقتباسات لأساليب الغير . ومن هنا نرى ، أن أنطـــون قـــد اقتـــبس الأفكار وتعدى ذلك إلى تقليد الأسلوب ، في آن واحد . ومع ذلك كله لم ينجُ مـــن الوقـــوع في التناقض الواضح :

يقول في " أورشليم الجديدة "

"أرى الطب يطيل عمر الإنسان إلى ما بعد المائتين ويتغلب على الأمراض والشيخوخة(.....) أرى الرزق الذي يقتتل عليه الناس اقتتال الحيوانات الضارية قد رخص وخف فصار الرجل الواحد يحمل منه في علبه في جيبه ما يكفيه أياماً ويأخذه من البيئة الاجتماعية مجاناً . أرى أجناس البشر في الشرق والغرب (.....) تتكرر فيهم الإنسانية على مر القرون والأجيال وتنقي من الحيوانية والجهالة والشهوات المفسدة فيمدون أيديهم بعضهم إلى بعض متصافحين متصالحين بعد طول الشقاق والنزاع ويعيشون في الأرض بسلام وأمن وسعة وفضيلة تامة كأنهم أخوة في عائلة واحدة. يا بني. هذا ما أراه في أحلامي وأوهامي منذ الآن . ولذلك قلت لك أن إصلاح الأرض مسألة علمية لا مسألة دينية .... " (36) .

إنه يحلم ويرى أن الطب سيطيل عمر الإنسان إلى ما بعد المائتين .... ويرى أن اصلاح الأرض مسألة علمية .. لا دينية ثم يقول بعد سطور قليلة :

– " مزقوا الكتب وانبذوا العلوم والفنون " (37)

فما هو السر في هذا التناقض الصريح الواضح ؟ يمكن القول – بإختصار – أن " الصورة الثانية " ليست أصيلة ، إنما هي صورة لأفكار الغير ، لم يُحسن فرح أنطون صنعاً حين قام باقتباسها على هذا النحو الغريب المصطنع .

هذه هي أهم التأثيرات الواضحة للفيلسوف والمفكر الفرنسي جان جاك روسو على كاتبنا فرح أنطون ، الذي يجاري أفكار هذا الأخير ويقتبسها ، دون أن يأخذ بعين الإعتبار أن المحاكاة لها حدود وأن التقليد له حدود ، وأن الإنسان المفكر ، لابد له من ابداع وخلق أفكار جديدة ، تتلاءم مع البيئة التي يعيش فيها ، وتتماشى مع الطموحات الوطنية والقومية والإنسانية ، واضعاً أمام عينيه : أن المحاكاة يجب أن يتلوها ابتكار ، وأن الابتكار الأصيل كثيراً ما قُدرَ له أن يفوق النموذج المُحتذى في بداية الطريق .

الوصف والتصوير عند الكاتبين

أ) عند جان جاك روسو

يعتبر الوصف والتصوير من العناصر الاساسية التـــي اعتمـــد عليهـــا الكاتـــب الفرنسي جان جاك روسو في خطابيه عن " أصول عدم المساواه بين الناس " و " العلـــوم والفنون " ، وذلك من أجل السمو بأسلوبه ومادته في آن واحد ، ولتغذية خطابية بعناصـــر التأثير والنفوذ إلى النفوس والمشاعر ، ولصبغهما بالصـــبغة الفنيـــة وتغليفهمـــا بالخيـــال الخصب . والحقيقة أن لدى روسو الكثير من النماذج الجيدة في خطابيه المتقدمين والتـــي تعتبر بحق من روائع الأدب الوصفي التصويري البـــارع ، وخاصـــة تلـــك الأوصـــاف الوجدانية الغنية بالشعور والعاطفة .

لقد اعتمد في خطابيه – إلى حد كبير – على الصـــور ، والأوصـــاف الأخـــاذة الرائعة، مصحوبة بقدر كبير من رحابة الأفق الإنساني ، ودقة الإحساس بنـــواحي الحيـــاة المختلفة ، والجمع بين العاطفة المشبوبة والفكر الحر ، والخيال الخصب المجـــنح ، مـــع عمق وحيوية عظيمين . وإذا كان التصوير في الأدب عامة ، دعامة من دعاماته الكبـــرى تضفي عليه أفانين من الرقة واللطف والجمال ، وتترك في النفس أعمق الآثار ، فهو فـــي أدب جان جاك روسو إحدى مزاياه الجميلة ، التي برع فيها إلى حد كبير ، واســـتطاع أن يقدم منها الروائع ، وذلك من خلال صور الحياة ، وشتى نوازع النفس البشـــرية والفكـــر البشري التي يقدمها في خطابيه عن أصول عدم المساواة والعلوم والفنون وكذلك في بقيـــة انتاجاته ، حيث يورد الكثير من الصور البارعة النادرة .

ويشترك في نسج هذين الخطابين وغيرهما – إلى جانب الخيال الخصب، والقلب الكبير، والأفق الواسع – شعور دفاق وفكر مبدع ، إضافة إلى ما يمـــر بنـــا فيهمـــا مـــن

أوصاف، وتصاوير فنية جادت بها قريحة الفيلسوف، والكاتب الفرنسي جان جاك روسو ، فوجدنا

فيها جمال وموسيقى . هذا إلى جانب العفوية، والصدق، والإيجابية التي تغمر ذلك الأسلوب المرسل الذي تقبله الخاصة، وتفهمه العامة .

وما ورد – في هذا الصدد – عن " أصول عدم المساواة بين الناس " وعن " العلوم والفنون " ، يمكن قوله بالنسبة لمؤلفات روسو بشكل عام ، فالوصف والتصوير والخيال الذي ليس له حدود ، وسعة الأفق والشاعرية الساحرة وكل ما يمكن أن ينعطف على ذلك من عناصر ، يمكن لنا أن نجدها جميعاً في كل واحد من مؤلفاته بلا استثناء .

ب) عند فرح أنطون

نشأ فرح أنطون في وقت كانت فيه صناعة الكتابة تتأرجح بين القديم والجديد . وتذكر لنا المصادر أن الصحافة في ذلك العهد قد اجتذبت إليها بعض الكتاب، وحملتهم على أن يتوخوا السهولة في كتاباتهم إلى القراء . وقد أجمعت أهم الصحف والمجلات – وقتئذ – على الجري معاً في أسلوب واحد هو الأسلوب المرسل ، ذلك الأسلوب الذي يفهمه الجميع ولا يستعصي على أحد . في ذلك العهد ولد الكاتب وتكونت ميوله الأدبية " وكان إقباله عظيماً على الأدب الفرنسي فانصب عليه ينهل من مناهله ، ولا شك أنه تأثر بالروح الإنشائية التي لمسها في أمثال روسو ورينان (.....) وأخذ يطبقها على كتاباته العربية فجاءت سهلة رقيقة " ، تتماشى والأسلوب المرسل الذي يفهمه الجميع .

غير أن الهدف الأول " لروايات " فرح أنطون – بشكل خاص – هو هدف تعليمي ، كما يقول هو نفسه في مقدمة روايته " الدين والعلم والمال " :

" ولما وصلنا في ابراز مواد " الجامعة " إلى المواضيع المهمة التي تكمل مباحثها السابقة، خطر لنا أن نهجر أسلوب المقالات المتقطعة والفصول المتفرقة إلى أسلوب الرواية لأنه أجمع وأوعى فضلاً عن كونه أشد تأثيراً وأحسن وقعاً . فعزمنا بحوله تعالى على ابراز عدة روايات كل واحدة منها تبتدئ وتنتهي في جزء واحد (.....) وقد سميناه هنا رواية على سبيل التساهل لأنه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في علائق المال والعلم والدين وهو ما يسمونه في أوروبا بالمسألة الاجتماعية " .

فهو يعترف صراحة في تلك المقدمة باتجاهه إلى البحث الفلسفي الاجتمـــاعي وأن كتابه لا يمكن اعتباره رواية إلا على سبيل التساهل .

ورغم خلو روايات فرح انطون من كثير من العناصر الروائيـــة ، إلا أن بعـــض كتاباته غير الروائية لم تخل – أحياناً – من الوصـــف وتصـــوير العواطـــف والأحـــداث تصويراً طبيعياً ، في مواقف عاطفية يقف خلالها موقف الشعراء وأصحاب الخيال البعيد، ولعل أعظم وقفاته تلك التي وقفها أمام شلال نياجرا بولاية نيويورك – تلك التي مرت بنـــا – والتي قال فيها أديبنا الكبير عباس محمود العقاد : وعندي أنها حسب كاتبها من أثر فـــي عالم الكتابة ان لم يكن له قط أثر سواها .

ومن مواقفه ما خاطب به أثينا اَلهة الحكمة (ونشرته الجامعة) ، حيث يقول فـــي بعـــض المواضع : " أتذكرين أيتها الاَلهة أولئك الفينيقيين الأسرى الـــذين كـــان يخطفهـــم بحـــارة جزائرك في الأرخبيل من شواطئ صور وصيدا ويســـوقونهم إلـــى بـــلادك . إن هـــؤلاء الأسرى كانوا مساعديك على تمدين قومك وتعليمهم الفنون الجميلة لأول مرة ، وهـــم مـــن قواعد نهضتك . ففي عروقك أيتها العذراء شيء من دماء شرقية . فنناشدك بحق حرمـــة هذا النسب القديم أن تبعثي إلى الشرق جدك القديم ، شـــيئاً مـــن ســـنا نـــورك العظـــيم . (الجامعة 4 – 315) .

(ملحق الدراسة)

حياة روسو ومؤلفاته

ولد جان جاك روسو بمدينة جنيف بتاريخ 28 يونيو (حزيران) 1712 ابنا لرجل ساعاتي ، يدعى اسحق روسو من عائلة بورجوازية صغيرة . ماتت أمه بعد مولده بقليل ، مما دفع به إلى قول بعض الكلمات المريرة فيما بعد :

" لقد كلَفت أمي حياتها ، وبهذا كان مولدي هو أول شقائي " (38) .

قضى طفولته يقرأ القصص والكتب التي توفرت بكثرة في مكتبة أمـــه ، والتـــي كان لها بعيد الأثر في تربية ذوقه الأدبي من جهة ، وفي تربية تلك الروح الحرة المليئـــة بالاعتزاز بالذات من جهة ثانية (39) .

وعندما ترك والده جنيف عام 1724 ، ليتغيب عنها لمدة سنتين ، ارتأى أن يتركه عند الباستور لامبرسييه ، حيث تعلم اللاتينية بعد ذلك وفي عام 1726 ذهب ليتعلم عند صانع للساعات حيث كان هذا الأخير في منتهى القسوة في معاملته ، مما أدى إلى فرار جان جاك وتركه مدينة جنيف نهائيا ، حيث بدأ حياةً متشردة ، وقد كان ذلك عام 1728 .

كان " إقليم السافوا " هو أول مكان يلجأ إليه بعد تركه جنيف ، حيث استقبله القسيس المسيو " دوبونتقير " الذي رأى في هذا المتشرد ، رجل مستقبل واعد (40) .
ثم قام هذا القسيس بارساله إلى مدام " دوفارانس " التي قامت بدورها بارساله إلى بلدة " آنسي " ، ثم أُرسل بعدها مباشرة إلى بلدة ثانية تُدعى " تورين " ، حيث تخلى عن البروتستانتية واعتنق الكاثوليكية .

لقد أمضى في تورين سنة على الأقل ، عمل خلالها عند مدام " دوفيرسلان " كخادم وسكرتير ، وفيما يتعلق بمكان عمله هذا ، يذكر لنا روسو في اعترافاته عبارات تنم عن وخز مؤلم للضمير نتيجة للصغائر التي ارتكبها في ذلك المكان : إنه يعترف حقيقة بأنه سرق شريطاً (ما يربط به شعر المرأة) من مدام دوفيرسلان ، وفوق ذلك فقد اتهم الخادمة " ماريون " التي تعمل معه في المكان ذاته بأنها هي التي أهدته له ، مما أدى بربة العمل أن تطردهما معا : " وربما أدى ذلك إلى إرسال فتاة شريفة ومحبوبة ومعتبرة إلى الفقر والشقاء " (41).

بعدها مباشرة دخل في خدمة كونت جنيف ، ليعلم ابنه اللغة اللاتينية ، ولم يمكث عنده طويلاً ، إذ انه التقى بأحد أصدقائه القدماء ، فعاوده الشوق إلى السفر ، وإلى رؤية مدام دوفارانس ، وهنا وفي عام 1729 عاد إلى فرنسا ليحقق هذا الحلم .

إن العودة والاستقرار إلى جانب مدام دوفارانس تُسجل بداية لعلاقات خاصة بين روسو الشاب وبين صاحبته هذه ، التي تقول : " بكلمة واحدة مني إلى المحب الأكثر شوقا : لا يوجد بيننا إلا فرقا واحدا لا غير ، ولكنه جوهري ، وهذا ما يجعل حياتي غير قابلة للسير على طريق العقل " (42) .

وأثناء وجوده مع صاحبته ، فكر في الدخول في خدمة الكاتدرائية ، وتم له ذلك ، ثم اكتشف أن له ذوقاً في الموسيقى كما اكتشف أنه موهوب فيها . هذا وقد بقي لغاية عـــام 1739 يعتاش من دروس الموسيقى التي كان يعلمها لبعض الهواة والمريدين . كمـــا كـــان يقضي مع مدام دوفارانس لحظات طويلة من السلام ، ولحظـــات طويلـــة أيضـــا مليئـــة بالعاطفة العنيفة المشبوبة ، حيث أصبحت عشيقة له ، أما هي فقد كانت غنية ، وأما هـــو فقد عرف الأزمات المادية ، مما ساقه في نهاية الأمر إلى الوقوع على سرير المرض .

وفي عام 1736 يقرر الإثنان (روسو ومـــدام دوفـــارانس) الإســـتقرار فـــي " الشارميت " على مدخل مدينة " شامبري " ، حيث كان جان جاك مثالاً لرجـــل متقاعـــد ، يعيش في الريف ، حيث قضى أوقاتاً وصفها بأنها أجمل وأسعد أيام حياته .

وعندما وقع فريسة للمرض ، اعتقد بأن موته يقترب منه ، وعندما تعـــدى هـــذه الأزمة ، وتماثل للشفاء ، أخذ يقضي أوقاته ما بين القراءة والتمتع بالمناظر الطبيعية فـــي الريف (43) .

ويعود إلى جنيف في عام 1737 ، لتصفية ميراث له ، ولكنه مـــن جديـــد يعـــود فينشغل بمشكلاته الصحية ، ويعتقد بأنه مصاب في القلب ، مما دفعه إلـــى التفكيـــر فـــي السفر إلى " مونتبلييه " ، لإستشارة أحد الأطباء هناك ، وفي طريق رحلتـــه مـــن وإلـــى الطبيب ، يلتقي بمدام " دولارانج " التي لم تتورع عن إيقاعه في حبائلها !.

وقد كانت علاقته بسيدته الجديدة هذه على اختلاف تام عن تلك العلاقة بينه وبـــين سيدته الأولى مدام دوفارانس ، حيث كانت مع مدام " دولارانج " مشبوبة لا يعكر صـــفوها أي شعور بالذنب – حسب تعبيره – من شأنه أن يتسبب له بالشعور بالحزن العميق .

" لم أحبها قط كما أحببت مدام دوفارانس ، لقد أحببتها أكثر من ذلك مئة مـــرة . بـــالقرب من أمي (44) كانت رغباتي مرتبكة ومرتعشة ومختلطة بعواطف الحزن العميق " (45) .

ثم يفترق عن مدام " دولارانج " في " مونتبلييه " ، لأنه يتوجـــب عليـــه متابعـــة العلاج فيها ، وقبل أن يفترقا بلحظة ، تدعوه دولارانج إلى اللحاق بها بعد أن ينتهـــي مـــن تلقي العلاج ، وذلك في محلَتها الكائنة بمدينة " بورغ سان أندريو " ، ولكنه يلغـــي اتبـــاع هذه الفكرة ، وذلك لأنه يريد العودة إلى مدام دوفارانس .

وعند عودته إلى مدام دوفارانس ، يجد في بيتها رجلاً آخر ، كان قد استقر عندها أثناء غيبته ، " وعندما سألتُها إذا كانت قد تلقت رسالتي ، أجابتني : نعم ، مع أنني اعتقدت أن الأمر غير ذلك ، وأنها لم تتسلَم رسالتي " (46) .

رضي أن يكون ذلك الرجل شريكاً له في تلك المرأة ، واعتبر أن عدم وفاء مدام دوفارانس إنما هو إمارة من إمارات طيبتها وضعفها الطبيعيين ، ويكون روسو بذلك وفياً لمبدأ من أهم مبادئه التي يؤمن بها وهو : أن لا يهتم إلا بما هو طيب في الإنسان (47) ، هذا وقد وصفها في غير موضع بأنها ملاك في الطيبة والفضيلة ، ولكل منا أن يحكم على ذلك حسب ما يراه .

إن الكتاب السابع من " اعترافات " روسو ، يعتبر حداً فاصلاً في تلك الاعترافات ما بين القسم الأول والقسم الثاني منها ، كما يعتبر حداً فاصلاً أيضاً بالنسبة للمؤلف ذاته ما بين السنوات الجميلة التي قضاها في هدوء وطمأنينة وسلام ، والسنوات التي تلت مفارقته لمدام دوفارانس .

فقد أمضى سنة بعدها في خدمة مدام " دومابلي " ، تركها بعد ذلك قاصداً باريس في عام 1741 ، وفي رأسه مشروع نوطة موسيقية كان ينوي تقديمها إلى أكاديمية العلوم ولكن ذلك المشروع لم يلق صدى مقبولاً لدى الأكاديمية .

ثم عين – بعد ذلك – سكرتيراً للسفير الفرنسي في البندقية ، عاد بعدها بثلاثة أشهر إلى باريس على أثر خلاف وقع له مع السفير ، مما اضطره إلى البحث عن عمل في العاصمة الفرنسية لكسب قوته ، فاشتغل بالموسيقى ، وكتب بعض المسرحيات ، وتعاون مع " فولتير " في اخراج الأوبرا .

وفي عام 1745 تعرف إلى " تيريز ليفاسور " (48) التي تزوجها فيما بعد ، وفي ذلك يقول : " إنها العزاء الحقيقي الوحيد الذي أرسلته السماء لي وأنا في بحر الشقاء وهي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعل لي هذا الشقاء محتملاً " (49) .

لقد وجد في تيريز ليفاسور صديقة بسيطة تسدي له النصح في الوقت المناسب بالرغم من أنها كانت تلميذة له في ذات الحين .

" يجب أن أكون ذلك الإنسان الذي يعيش مع تلميذته التي وجد فيهـــا كـــل تلـــك البساطة الرائعة وطيبة القلب والرقة .. وطيبة القلب تلك ، وجدتها صاحبتي فيَ أيضاً"(50).

لقد أعانته السعادة الهادئة مع ذلك الملاك على إنجاز بعض أعماله في الأوبرا بنجاح كبير .

مات أبوه عام 1747 .

بعد ذلك تعرف جان جاك روسو إلى " ديدرو " و " مدام دبناي " وفي عام 1749 سُجن " ديدرو " في " ديجون " ، وخلال زيارات " روسو " لديدرو فـــي ســـجن ديجـــون وقعت عيناه ذات يوم على إعلان في إحدى الصحف عن موضـــوع مســـابقة عَرَضَـــتهُ " أكاديمية ديجون " ، وكان ذلك الموضوع بعنوان : " هل أدى تقدم العلـــوم والفنـــون إلـــى انحلال الأخلاق أم إلى رقيها وتطهيرها ؟ " .

لقد كان هذا الموضوع " نقطة تحول جبارة " في حياة وتفكير الفيلسوف الفرنســـي جان جاك روسو ، وخاصة حينما شاءت الأقدار أن يجاز مقالُهُ في هذا الموضـــوع ســـنة 1750 على أساس أنه أفضل من كتب عن ذلك الموضوع . ومنذ ذلك الحين أخـــذ نجمـــه في الصعود ، وبدأت شهرته الحقيقية ، كما بدأت تعرفه صالونات باريس الأدبية المعروفة آنذاك .

وفي تلك الفترة ذاتها ، رزق جان جاك بثلاثة أطفال من تيريز ليفاسور ، وذلـــك بشكل متتابع ، قام بعد ذلك بوضعهم في ملاجئ الأيتام المنتشرة في ذلك الزمـــان ، وقـــد كان وضع الأطفال في الملاجئ لسبب أو لآخر يعتبر من الأمور الشائعة فـــي العاصـــمة الفرنسية في ذلك العصر ، (ولكننا ورغم تبريرات روسو ذاته لا يمكن أن نستسيغ ذلـــك الصنيع الغريب) .

يقول الفيلسوف

"لقد وضعت أطفالي في دور الثقافة العامة (يسمي الملاجئ دوراً للثقافة العامة) واهباً اياهم ليكونوا عُمالاً وفلاحين ، فإن ذلك لأفضل بكثير من أن يكونوا من المغـــامرين الراكضين وراء الثروة والمال ، وقد فعلت بهذا الصنيع فعل مواطن صالح ، وأب بـــار ، وعليه فإنني سأنظر إلى نفسي كفرد يعيش في جمهورية أفلاطون " (51) .

وفي عام 1753 ، ظهر في برنامج " أكاديمية ديجون " ذاتها مسابقة ثانية تحت عنوان : "ما هي أصول عدم المساواة بين الناس ؟ " .

ولقد حاول جان جاك الإجابة عن هذا السؤال ، خلال إقامته في " سان جرمان " حيث حاول أن يفكر لنا بصوتٍ مرتفع ، وذلك على النحو الآتي :

"متوغلاً في أعماق الغابة حاولت أن أبحث وأفكر ، لكي أجد صورةً للماضي السحيق ، حيث تصفحت التاريخ بكل فخر واعتزاز ، وجعلت يدي تمرُ على أكاذيب الناس الصغيرة وتجرأت على تعرية طبيعتهم متتبعاً تطور الأزمان والأشياء التي بشَعوها وأفسدوها ،وقارنت الناس العاديين بالإنسان الطبيعي (كان روسو يفتخر دائماً بالإنسان الطبيعي الذي لم تفسده العلوم والفنون) وبينت لهم كماله كما أظهرت لهم – في الوقت ذاته – منابع وأسباب شقائهم " (52) .

وهذه الأفكار ذاتها ، ألهَمتهُ مقاله المعروف : " مقال عن عدم المساواة " ، الذي ظهر عام 1755 ، وهذا المقال لم يصادف الكثير من النجاح في حينه ، وعكس الحال كان له فيما بعد حيث اشتهر كثيراً في زمن لاحق . وفي العام ذاته ، سافر إلى جنيف ، حيث استقر عند مدام " دبناي " ، وبدأ بتخيل أشخاص قصته المعروفة : جولي أوهلويز الجديدة ، تلك القصة الذائعة الصيت في الأوساط الأدبية الفرنسية وحتى الأوروبية بشكل عام ، ففي روايته هذه اعتمد روسو " وصف الطبيعة " كبعد رئيسي من أبعاد الرواية ، فقام بوصف المناظر الساحرة في وديان فرنسا وجبال سويسرا وجمال الريف الساحر وهدوئه الرزين ، بالإضافة إلى وصفه الساحر لبحيرة " ليمان " السويسرية ، كل ذلك كان من المقدمات الأساسية لميلاد الحركة الرومانسية في أوروبا . لقد وجدت وقفاته أمام الطبيعة في قصته " جولي أوهلويز الجديدة " أصداءها الواسعة في كتابات كبار أُدباء العصر ، من أمثال " شاتوبريان " و " لامارتين " و " مدام دو ستايل " و " جورج صاند " وإذا ما تفحصنا قصيدة لامارتين في وصف البحيرة ، فإننا نجد أن جذورها تمتد إلى وصف " بحيرة ليمان " عند جان جاك روسو في قصته جولي أوهلويز الجديدة (53) .

ثم تسير الأقدار بجان جاك فيتعرف إلى مدام " هندتو " عـــام 1757 ويقـــع فـــي غرامها ، وما أن يستقر معها في البيت ذاته ، حتى يصارحها بحقيقة عواطفـــه المشـــبوبة نحوها! .

وفي عام 1758 ، يقطع علاقته بمدام دبناي ويسكن في مونتمرسي ، وفـــي عـــام 1762 ، يصدر كتابه " العقد الاجتماعي " ، وهذا كتاب من كتب روسو الهامة جداً ، مـــن وجهة نظر الفرنسيين على الأقل ، إذ أنه يحتوي على مبادئ " حقـــوق الإنســـان " التـــي تفتخر بها فرنسا أيما

افتخار ، كما يحتوي على الكثير من المبادئ والشـــعارات التـــي تبنتهـــا الثـــورة الفرنسية ومن أهم تلك المبادئ : " الحرية " و " الاخاء " و " المساواة " .

وفي العام ذاته (1762) يصدر كتاباً في التربية بعنوان " اميـــل أو التربيـــة " ، الذي يعتبره العلماء الغربيون أول كتاب وضع في التربية ، وعلى الرغم مما على الكتـــاب من مآخذ ، إلا أنه يعتبر – في نظر التربويين الأوروبيين – أفضل كتاب وضع فـــي هـــذا الموضوع حتى الآن .

وحينما أصبح مهدَداً بالقاء القبض عليه ، نتيجة أفكارة المنتشـــرة فـــي مؤلفاتـــه ورسائله ، لم يُعِر جان جاك روسو ذلك أي اهتمام ، وهو إذ يوضـــح الســـبب فـــي عـــدم اكتراثه هذا ، يستنكر الوضع قائلاً :

" ليس ثمة ما يشكل خطراً على الأمن العام سوى الجرائم ، وعندما يَتضـــح مـــا يثبت الجريمة ، تصدر الأوامر بالقبض على الجاني ، نظراً لما يسببه ذلك المجـــرم مـــن خوف لدى الجمهور ، ولكن حينما يتعلق الأمر بمعاقبة أمثالي ممـــن يســـتحقون المكافـــأة والتكريم ، فإنه يكفي – والحالة هذه – أن نحتجَ ضد الكتاب وأن نتحاشـــى قراءتـــه قـــدر الإمكان ، إذا كانوا يعتقدون أن الأمر خطير ، كما يتوهمون " (54) .

وينتهي الأمر بجان جاك بالهرب من جنيف إلى " نوشاتل " ثم إلى جزيرة ســـان بيير (الواقعة على أراضي بيرن) ، وحين طردته السلطات السويســـرية ، رحـــل إلـــى انجلترا ، وعند وصوله إليها استضافه الفيلسوف " دافيد هوم " ، ثم اســـتمر علـــى حـــال التشرد هذه إلى أن وافاه الأجل عام 1778 . وبعد ، فهذا عرض مقتضـــب جـــداً لحيـــاة

وأعمال روسو ، إذ أن الخوض فيها أكثر من ذلك يتطلب منا كتاباً – على الأقل – في هذا الشأن . ولا يخفى أنه ترك بصماته الواضحة على ميادين عديدة تتوزع ما بين الشعر والفلسفة والأدب والسياسة والتربية والحقوق وغيرها .

والملاحظ بشكل عام أن روسو يكرر آراءه الفلسفية في جميع كتبه على الإطلاق ومن أهم تلك الآراء : الربط بين حياة البساطة والسعادة ، وبين السعادة والعيش في أحضان الطبيعة ، والدعوة إلى الحرية والإخاء والمساواة ، والدعوة إلى مبادئ حقوق الإنسان ... وما انعطف على ذلك من مثل : " أن الإنسان طيب بالطبع " و " كل شيء يأتي من يد الخالق كاملاً ولكن يد الإنسان تمتد له بالتخريب دائماً " .

وقد قال فيه " توفيق الحكيم " مشيراً إلى أهمية مبادئ حقوق الإنسان ، التي وردت في كتاب روسو " العقد الاجتماعي " : حضارة اليوم الحديثة هي من غير شك انتصار للإنسانية ، نهار بزغ في عصر النهضة واحياء العلوم : انه النهار الثاني بعد نهار الاغريق الأول ، ومن العجيب أنه في كلا النهارين بدا مظهر من مظاهر التحرر ، لا للفكر وحده بل للمجتمع ، ففي نهار الاغريق عرفت الإنسانية " الديمقراطية " ، وفي نهار العصور الحديثة ، عرفت الإنسانية " حقوق الإنسان " (55) .

ثم قال في موضع آخر

" كانت الحقيقة الثابتة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية هي : حقوق الإنسان ، وسرى هذا المبدأ في الأرض ، وجُعِل أساساً لأكثر الأمم ، ولم يَعُد من الضروري لتطبيقه إقامة نظام خاص من الحكم ، فالملكية والجمهورية تصلحان على السواء إطاراً للمحافظة على حقوق الإنسان " .

أعمال جان جاك روسو

1) مقال حول العلوم والفنون (الذي حاز جائزة أكاديمية ديجون) (1749) .
2) مقال حول أصول عدم المساواة (1755) .
3) جولي أو هلويز الجديدة (قصة) (1761) .
4) العقد الاجتماعي (أبريل – نيسان 1762) .
5) اميل أو التربية (مايو – ايار ، 1762) .

6) رسائل من الجبل (بداية محتملة لكتابه : اعترافات) (1764) .
7) اعترافات (نهاية محتملة لكتابه : اعترافات) (1770) .
بالإضافة إلى مقطوعتين في الأوبرا نالت إحداهما (ملاك القرية) نجاحاً كبيراً . القطعة الأولى كانت عام 1745 ، وكانت القطعة الثانية عام 1752 .

المراجع

(1) سنورد ترجمة مختصرة لروسو في نهاية البحث .
(2) العكره ، أدونيس : فرح أنطون (مج 1 – المؤلفات الروائيـــة) ، دار الطليعـــة ، بيروت 1979 ، ص6 .
(3) العكره ، أدونيس : فرح أنطون (مج 1 – المؤلفات الروائية) ، ص6 .
(4) المرجع ذاته ، ص 13 .
(5) مناهل الأدب العربي (29) : فرح أنطون ، مكتبة صادر ، بيروت [بلا تاريخ] ص4
(6) المرجع نفسه ، ص7 .
(7) المقدسي ، أنيس : الفنون الأدبية وأعلامها ، دار العلم للملايين ، بيـــروت 1984 ، ص281 . وللمزيد من الاطلاع حول فرح أنطون وحياته وأفكاره ومؤلفاتـــه نحيـــل إلـــى المراجع التالية :
أ ــ العكره ، أدونيس : فرح أنطون (مجلدان) ، دار الطليعة ، بيروت .
ب ــ أمين ، أحمد : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي ، بيروت
ج ــ زيدان،جورجي:تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشـــر(جـــزءان) ، مصـــر 1922 .
د ــ عبود ، مارون : رواد النهضة الحديثة ، دار الثقافة ، بيروت 1966 .
هـــ قلعجي ، قدري : ثلاثة من أعلام الحرية ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
و ــ نصور ، أديب : الفكر العربي في مائة سنة ، الجامعة الأمريكية،بيروت 1967 .
ز ــ حوراني ، البرت : الفكر العربي في عصر النهضة ، دار النهـــار للنشـــر، يـــروت 1968 .
(8) Rousseau, J.J : Emile ou L'education, Garnier Flammarion, Paris 1966 .
(9) Idem P.357-359.
(10) مجلة الجامعة ، السنة الثالثة ، مقال فرح انطون تحت عنوان : ابن رشد وفلسفته
(11) Rousseau, J.J : Emile ou L'education, P. 375 .

(12) العكره ، أدونيس : فرح أنطون (مج 1)، ص235 – 236 .

(13) Rousseau, J.J : Emile ou L'education, P. 265 .

(14) مجلة " الجامعة " ، السنة الثانية : مقال فرح أنطون بعنوان " تربية المرأة " .

(15) Rousseau, J.J : Emile ou L'education, P.265et les pages suivantes .

(16) مجلة " الجامعة " ، السنة الثانية ، من مقال فرح أنطون " تربية المرأة " . قـــارن هذا النص بما جاء في كتاب جـــان جـــاك روســـو " اميـــل أو التربيـــة " : Emile ou L'education ص269 وما بعدها .

لاحظ أيضاً استخدام فرح أنطون لمصطلح " الهيئة الاجتماعية " الذي كان ينفرد به روسو كثيراً في مؤلفاته في ذلك العصر .

(17) مجلة " الجامعة " المقال ذاته وانظر ص265 مـــن كتـــاب روســـو Emile ou L'education .

(18) مجلة " الجامعة " ، السنة الثانية ، " مقال فرح أنطون " تربية المرأة " .

(19) Rousseau, J.J : Emile ou L'education P. 265 - 266 .

(20) Idem 265 - 277 .

(21) الجامعة – السنة الثانية ، مقال انطون " تربية البنات " .

(22) الجامعة – المقال ذاته .

(23) الجامعة – المقال ذاته .

(24) Rousseau, J.J : De L’inegalite parmi les Hommes - Editions sociales, Paris 1979 .

(25) Idem P101

(26) Idem P102

(27) Idem 108

(28) Rousseau, J.J : De L’inegalite parmi les Hommes, P.115

(29) idem P.121

Voir aussi : La Nouvelle Heloise, La Reverie d’un promeneur

Solitaire et contrat Social ou J.J. Rousseau repite ces idees elles memes

(30) راجع " الوقفة " في مجلة الجامعة مج6 الجزء الثامن (وهذه الوقفة تملأ عشر صفحات من مجلة الجامعة التي كان يصدرها فرح أنطون) .

(31) أصول عدم المساواه بين الناس Les origines de L'inegalite parmi les hommes :

(32) Rousseau , J.J : Discours sur les Sciences et Les arts - Garnier Flammarion - Paris 1971.

(33) Rousseau , J.J : Discours sur Les Sciences et Les arts, P. 41 - 42

(34) Idem P. 45

(35) العكره ، أدونيس : فرح أنطون (مج1 – الأعمال الروائية) ، ص196–197 .

(36) العكره ، أدونيس : فرح أنطون (مج1 – الأعمال الروائية) ، " أورشليم الجديدة " : ص196 .

(37) العكره، أدونيس: فرح أنطون (مج1–الأعمال الروائية)، "أورشليم الجديدة" : ص197 .

(38) Rousseau, J.J. : Les confessions , Premiere partie, L1, P.8.

(39) Idem, L1 , P.11

(40) Idem , L2, P. 70 .

(41) Les confessions , L2 , P. 128.

(42) Idem, L3 , P.165 .

(43) Idem, L6, P. 361.

(44) كان جان جاك روسو ينادي مدام دوفارانس على أساس أنها أمه .

(45) Les confessions, L6, P. 354.

(46) Idem L6, P.406

(47) Idem, L6, P410

(48) Les confessions, Deuxieme Partie, L7, P.16

(49) Idem, L7, P.16

(50) Idem , L7 , P.18

(51) Les confessions, Deuxieme Partie, L8, P. 54

(52) Les confessions, L8, P. 99

(53) هلويز الجديدة : رواية تتخللها أشعار جان جاك روسو الساحرة فـــي كثيـــر مـــن المواضع المختلفة .

(54) Les confessions, L11, P. 367.

(55) الحكيم ، توفيق : تأملات في السياسة ، مكتبة الآداب ، القاهرة 1954، ص10-11